



المنهج الوصفي في كتاب سيبويه في ضوء علم اللغة الحديث

The descriptive approach in Siboué's book in the light of modern linguistics

أ.د. قدور سلاط

جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي تبسة
مخبر الدراسات الإنسانية والأدبية (الجزائر)kaddoursellat@gmail.com

علي عبد المؤمن*

جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي تبسة
مخبر الدراسات الإنسانية والأدبية
(الجزائر)ali.abdelmoumene@univ-tebessa.dz

ملخص:	معلومات المقال
يتناول البحث موضوع المنهج الوصفي في كتاب سيبويه في ضوء علم اللغة الحديث، في مسعى لإثبات علمية درس اللغوي عند سيبويه من خلال بيان عنايته بالمنهج الوصفي، وهو محاولة لوضع مقارنة بين منهج سيبويه في كتابه، وبين اللسانيات الحديثة، ولقد اتضح لنا أن درس اللغوي في كتاب سيبويه قائم على أساس من العناية بالمنهج الوصفي، وأن جميع أسس الدراسة الوصفية وشروطها حاضرة في الكتاب، وهو ما يجعل من درس سيبويه اللغوي درسا علميا رصينا، وهذه الأوراق البحثية تطمح إلى استجلاء دوافع الدراسة الوصفية عند سيبويه، كما تهدف إلى إبراز مكانة التراث اللغوي العربي عموما بالنسبة إلى اللسانيات الحديثة، انطلاقا من كتاب سيبويه، وقد عرضنا في هذا البحث الأسس التي قام عليها المنهج الوصفي عند سيبويه، وأكدنا أنها صميم الدراسة العلمية في اللسانيات الحديثة.	تاريخ ارسال: 2023/12/21 تاريخ القبول: 2024/03/13
	الكلمات المفتاحية: <ul style="list-style-type: none"> ✓ المنهج الوصفي: ✓ التراث اللغوي العربي، ✓ سيبويه، ✓ اللسانيات الحديثة، ✓ العلمية،
Abstract :	Article info
<i>The research deals with the subject of the descriptive approach in Sibawayh's ELKITAB in the light of modern linguistics, in an effort to prove the scientificity of Sibawayh's linguistic lesson by showing his interest in the descriptive method, an attempt to draw up an approach between Sibawayh's approach in his book, and modern linguistics, and it became clear to us that the linguistic lesson in Sibawayh's book is based on the descriptive approach, and that all the foundations and conditions of the descriptive study are present in the book, which makes Sibawayh's linguistic study a solid scientific lesson. Arabic in general in relation to modern linguistics, starting from Sibawayh's book.</i>	Received 21/12/2023 Accepted 13/03/2024
	Keywords: <ul style="list-style-type: none"> ✓ descriptive syllabus, ✓ Arabic linguistic heritage, ✓ Siboué's, ✓ modern linguistics, ✓ language science,

1. مقدمة

ما من علم إلا وله منهج يسيره فيعرض أفكاره ويحلل مادته ويصف ظاهرته، لذلك كانت اللغة بدورها قائمة على عدة مناهج لدراستها، ويعدُّ المنهج الوصفيُّ واحداً من أهم مناهج علم اللغة؛ لأنَّه يعالج اللغة بطريقة علمية، وهو اليوم أكبر حظوة لدى الباحثين اللغويين منذ ظهور كتاب فرديناند دي سوسير "محاضرات في علم اللغة العام"، على يد اثنين من تلامذته المتميزين؛ حيث أحدث هذا المنهج ثورة لغوية علمية على المناهج والنظم والمفاهيم السائدة قبل ذلك العهد، فتوجهت أنظار الباحثين منذ ذلك الحداث اللساني الكبير إلى المنهج الوصفي، أين طبقوه في دراساتهم اللغوية فأحرزت بحوثهم نتائج إيجابية، وعلى الرغم من ذلك فقد تعددت المناهج واختلفت بين التاريخية والتوليدية التحويلية والوصفية والمعيارية وغيرها، وتلك هي طبيعة أي علم أن يختلف ويتسع، ولقد حذا الباحثون العرب المحدثون حذو الغرب في درسهم اللساني، ورأوا أن المنهج الوصفي هو المنهج الأنسب والأكثر ملاءمة وقرباً إلى العلمية، ويقوم المنهج الوصفي على أساس وصف اللغة أو اللهجة في مستوياتها المختلفة، من حيث أصواتها ومقاطعها وأبنيته ودلالاتها وتراكيبها وألفاظها، أو في بعض هذه النواحي، ولا يتخطى مرحلة الوصف، وتُعدُّ الأطالس اللغوية مثالا ناجحاً من أمثلة إجراءات وتطبيقات المنهج الوصفي في دراسة اللغة.

وفي هذه الدراسة سوف نتناول جوانب البحث من خلال عدة محاور رئيسية هي:

- مدخل مفاهيمي (ضبط المصطلحات العلمية): "المنهج الوصفي"
- درء ادعاء تعارض الوصفية والمعيارية في كتاب سيبويه
- أسس المنهج الوصفي في كتاب سيبويه في ضوء علم اللغة الحديث
- الخاتمة

ويقف وراء هذا البحث سؤال كبير وبارز، متعلق بمنهج الدرس اللغوي في كتاب سيبويه، من هنا كانت الغاية التي أسعى وراءها بهذه الأوراق البحثية أن ألقى ضوءاً جديداً كاشفاً عن التفكير اللغوي عند سيبويه منبعثاً من المنهج الوصفي في درسه اللغوي في كتابه (حسان، 1994. ص: 10)، وهو ما يجعلنا نطرح الإشكال التالي: هل توجد إرهابات أولية للمنهج الوصفي في كتاب سيبويه؟ وبصيغة أخرى هل كان منهج سيبويه وصفيًا أم معياريًا؟ أم أنه كان وصفيًا حيناً ثم معياريًا حيناً آخر؟

2. مدخل مفاهيمي (ضبط المصطلحات العلمية): "المنهج الوصفي"

1.2. تعريف المنهج:

- المنهج لغة:

إنَّ كلمة نَحَج من الناحية اللغوية تعني عند المعجميين والشُّرَّاح والمفسِّرين عموماً اتِّخَاذَ واتباعَ طريق معين، وتعني الوضوح والبيان والاستقامة، فقد جاء في المعجم الوسيط: "النَّهْجُ: البَيِّنُ الواضِحُ، يقال: طريقٌ نَهْجٌ، وأمرٌ نَهْجٌ، والطريقُ المستقيمُ الواضِحُ، يقال: هذا نَهْجِي لا أحيِدُ عنه، ج نَهْجَاتٌ، ونَهْجٌ ونُهْجٌ" (مجمع اللغة العربية، 2004. ص 957).

- المنهج اصطلاحاً:

هو " فنُّ التَّنْظِيمِ الصَّحِيحِ لسلسلة من الأفكار العديدة، إما من أجل الكشف عن الحقيقة حين نكون بما جاهلين، أو من أجل البرهنة عليها للآخرين حين نكون بما عارفين " (بدوي، 1977. ص:4).

أو هو: " ذلك التنظيم الفكري المتداخل في الدراسة العلمية وبمعنى أبسط هو الخطوات الفكرية التي يسلكها الباحث لحل مشكلة معينة" (نجم وآخرون، 1988. ص:13).

وقيل فيه إنه: " ما يتميز به البحث اللغوي من مناهج، ويختص بها" (البدراوي، 2008. ص:61).

2.2. الوصف لغة:

" (وَصَفَ) الْوَأُو وَالصَّادُ وَالْفَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، هُوَ تَحْلِيَةُ الشَّيْءِ، وَوَصَفْتُهُ أَصِفُهُ وَصَفًا، وَالصِّفَةُ الْأَمَارَةُ لِلشَّيْءِ، كَمَا يُقَالُ: وَزَنْتُهُ وَزَنًا، وَالزَّنَةُ قَدْرُ الشَّيْءِ، يُقَالُ: اتَّصَفَ الشَّيْءُ فِي عَيْنِ النَّاطِرِ، اخْتَمَلَ أَنْ يُوصَفَ، وَأَمَّا قَوْلُهُمْ: وَصَفَتِ النَّاقَةُ وَصُوفًا، إِذَا أَجَادَتِ السَّيْرَ، فَهُوَ مِنْ قَوْلِهِمْ لِلْحَادِمِ: وَصِيفٌ، وَلِلْحَادِمَةِ وَصِيفَةٌ، وَيُقَالُ: أَوْصَفَتِ الْجَارِيَةُ؛ لِأَنَّهَا يُوصَفَانِ عِنْدَ الْبَيْعِ " (الرازي، 1979. ص:115) ، " و تواصلوا الشيء من الوصف، واتصف الشيء، أي صار متواصلًا، قال طرفة بن العبد:

إني كفاني من أمر هممت به جار كجار الحذاني الذي اتصفا

أي صار موصوفا بحسن الجوار" (الجوهري، 1987. ص:439).

- الوصف اصطلاحاً:

جاء في الكليات أن: " الوصف: هو والصفة مترادفان عند أهل اللغة، والهاء عوض عن الواو كالوعد والعدة، وعند المتكلمين: الوصف كلام الواصف، والصفة هي المعنى القائم بذات الموصوف، والوصف الفعلي ما يكون مفهومه ثابتاً للمتبوع، نحو: مررت برجل كريم، والوصف السببي داخل في الوصف الحالي، وراجع إليه في التحقيق" (الكفوي، 1994. ص:942).

وإذا أردنا ربط هذين الحدين (المنهج) و(الوصف) من أجل الحصول على تعريف إجرائي جامع لهما، نجد أن المنهج الوصفي

هو ما جاء في عديد المراجع من أنه:

3.2. المنهج الوصفي:

هو " طريقة في وصف اللغة، ويفحص ظواهرها ومظاهرها، على سبيل المثال الأصوات، أو التركيب الخاص بلغة معينة، في فترة

تاريخية معينة" (باي، 1998. ص:36).

أو هو " أسلوب من أساليب التحليل المرتكز على معلومات كافية ودقيقة عن ظاهرة أو موضوع محدد من خلال فترة أو فترات

زمنية معلومة، وذلك من أجل الحصول على نتائج عملية تم تفسيرها بطريقة موضوعية، وبما ينسجم مع المعطيات الفعلية للظاهرة" (عبيدات، 1999. ص:46).

3. درء ادعاء تعارض الوصفية والمعيارية في كتاب سيبويه:

الوصفية والمعيارية منهجان هاتان من مناهج علم اللغة، ولا غنى لدارس اللغة عن أيٍّ منهما، ووجود أحدهما لا يُقصي الآخر بل يقبله ويدعمه، لأنَّ الدَّارس لعلم اللغة قد ينتقل في أثناء درسه من وضع إلى آخر غيره أو قد تفرض عليه طبيعة موضوعه وظروفه الانتقال من منهج إلى منهج، غير أنَّهما "موقفان لا يقعان البتة في نفس اللحظة الزمنية، وبالتالي فإن الذي يصوغهما ليس هو نفس الشخص من الناحية الاعتبارية وإن فاه بهما نفس اللسان، بل قل ليس الذي يصوغهما هو نفس المنظار" (المسدي، 1986. ص: 15)، ولنا في الدرس العربي أسوة في تطبيقه المنهج الوصفي على الظواهر اللغوية، فتاريخه "يدل على اتخاذه منهج الوصف في تحليل الظواهر اللغوية بدءاً بالاستقراء كما هو ملاحظٌ بصورة جلية في كتاب سيبويه" (روين، 1986. ص: 11)، "وقد تم ذلك بأسلوب علمي رصين تناغمت فيه الوصفية مع المعيارية، فأنتجت لنا فكراً لسانياً خصباً، وقد لقي المنهج الوصفي قبولاً واستحساناً كبيراً بفضل سلامة نتائجه ودقتها" (حسنين، 1984. ص: 99).

وإنَّ "من أخطر ما عاق ازدهار الوعي اللساني في أوساطنا العلمية معركة الوصفية والمعيارية في المعرفة اللغوية، بل على وجه التحديد ما لابسها من خلط منهجي وتحريف مبدئي، تولدت عنهما مجموعة من المشاكل الزائفة أربكت دعاة المعيارية وأرهقت أنصار الوصفية" (المسدي، 1986. ص: 13)، ولقد ذهبت الدكتورة فاطمة الهاشمي بكوش في كتابها "نشأة الدرس اللساني العربي الحديث" - دراسة في النشاط اللساني العربي - إلى حدِّ الزعم بأنَّ لا تعارض البتة بين المنهجين اللغويين المنهج الوصفي والمنهج المعياري، وذلك في محاولة لإثبات علمية الدرس العربي، كما ألحَّت الباحثة على أنَّهما وجهان لعملة واحدة هي البحث اللساني، وأكدت بأن الدراسة اللغوية تقتضيهما معاً، فقالت: "هذه الفكرة تحتاج إلى توضيح؛ لأنَّ العلاقة بين المنهج المعياري والمنهج الوصفي لا يمكن أن تكون علاقة تعارضية" (بكوش، 2004. ص: 50)، وذلك في معرض حديثها عن الذين فرَّقوا بين المنهج الوصفي والمنهج المعياري عندما أرادوا إثباتهما معاً للدرس اللساني العربي، كنظام حسان كأول من عنتمهم بحديثها، فكيف بمن نفي عنه المنهج الوصفي جملة واحدة بما في ذلك كتاب سيبويه، حتى غدا الأمر كأنه معيب في حق الدرس اللغوي العربي وفي كتاب سيبويه أن أُعمل فيه المنهج المعياري وطُبق، والبصريون هم أكثر من أُنهم بذلك.

غير أنَّ عامل الزمن ومقتضى حال الدرس العربي الفتى آنذاك هو الذي حتم ذلك النوع من الدراسة، وأردفت قائلة: "وما عرضه د. تمام حسان على أنه معركة بين المعيارية والوصفية هو مغالطة وحاصل لبس، والحقيقة أن المعيارية والوصفية مقولتان لا تنتميان إلى الحيز التصوري نفسه، فالمعيارية وضع تنتهي إليه كل العلوم ومنها اللسانية، والوصفية منهج في الدراسة اللسانية، ولا تناقض بين المقولتين، والقول بتناقضهما أدى إلى اختلاق مشكل مزيف بين النحو واللسانيات" (بكوش، 2004. ص: 50)

غير أن دعاة الحدائة والتقليد لا يُفرِّقون بين اللغات ولا بين الثقافات، ولا يراعون للعربية خصوصيتها وتميُّزها، لذلك فهم يسعون إلى إقحام الدراسات الغربية كلِّها غنَّها وسمينها في درسهم اللغوي التراثي، ولا يتوانون في اتِّمامه بالتعقيد والتشديد والغموض، والواقع أن الدراسات اللغوية في العربية قد بدأت وصفية في كثير من أصولها، ثم انتهت في الفترات المتأخرة ولا سيما بعد القرون الهجرية الأربعة إلى المعيارية" (الرديني، 2009. ص: 83)؛ فلقد احتيج إلى المنهج الوصفي في مراحل الدرس العربي الأولى، أين تم جمع اللغة وتدوينها بطرق المنهج الوصفي المختلفة من سماع وملاحظات وفرضيات واستقراء وتحريات، ثم تحولت الدراسة إلى المنهج المعياري بعد أن

اكتمل التدوين، فجاء عصر القياس والتقييد وإعمال العقل، ثم اطلع العرب بعد اكتمال درسه اللغوي على ثقافات الغرب القديمة كالفلسفة وعلم المنطق فاستقوا منها بعض الأفكار، ويضاف إلى ذلك عامل الترجمة إلى العربية، وبحلول عصر النهضة نما التفكير اللغوي، وازدهر المنهج الوصفي بصورة أوضح مع العالم اللغوي فردينان دي سوسير.

4. أسس المنهج الوصفي في كتاب سيبويه في ضوء علم اللغة الحديث

إنَّ المبلغ الذي بلغه سيبويه في كتابه من حسن الصنعة ورونق التحليل وبديع التأليف والتنظيم، حدا بجميع الباحثين العرب المعاصرين ودفع بهم إلى اعتبار كتاب سيبويه أعظم منجز لغوي تفتقت عنه القرحة اللغوية العربية وأنتجه الفكر العربي الأصيل، وأقرب مصنف لغوي إلى علم اللسانيات الحديثة، والدَّارس المتأمل المدقق في كتاب سيبويه يقف بالفعل هذا الموقف أو يكاد، ف" لقد عرف العرب المنهج الوصفي قبل الأوروبيين بما يزيد على عشرة قرون، حين جمعوا اللغة العربية، وسجلوا نصوصها، ثم أخذوا يصفون ظواهرها المختلفة من أصوات وبنى وجمل ودلالات" (الرديني، 2009. ص: 84).

ولا غرو في سبق العرب وتقدمهم إلى المنهج الوصفي ولا عجب، فإن الحقيقة التي يجب أن تدرك وتقال: أنَّ العلماء المسلمين في قرونهم الأولى قد أبدعوا إبداعاً عظيماً في شتى صنوف المعرفة وأنواعها، وهو إبداع بالكاد أن يكون معجزاً ومستحيلاً عند كثير من الأمم لولا جهود الدارسين العرب، ثم التقدم العلمي والتحول المعرفي الذي طرأ، وإن الدارس لعلم الحديث النبوي مثلاً ليقف مشدوهاً وكأن عقله قد خبل للذي يجده من غريب الصنعة وعجيبها، فيهُون عليه كثيراً علم اللغة، فيوقن بأن سيبويه الذي أقرت له الدنيا بالزعامة على العربية جدير بأن يكون قد سبق إلى الوصف في اللغة، وفق منهج علميٍّ مؤسس، فيهدأ من روعه، ويعلم بأنَّ الذي اختلف اليوم عن الأمس هو مجردُ تغيير في المسميات والمصطلحات، ونزراً يسير جداً من الإجراءات، ولقد وظَّف سيبويه المنهج الوصفيَّ في كتابه توظيفاً جيداً، ويقوم هذا المنهج في كتابه كأبي منهج على جملة من القواعد والأسس، تميزه عن غيره من المناهج وتعطيه طابع العلمية، تتمثل في:

1.4. اعتماد الاستقراء والاستنباط منهجاً للوصول إلى الحقيقة العامة:

الاستقراء خطوة هامة من خطوات المنهج الوصفي وأساس من أسسه، فهو الذي يُمكِّن الباحث من جمع مادته العلمية والمعرفية واستيعابها كخطوة أولى، ثم إجراء دراسته حول مختلف الظواهر، ليأتي فيما بعد الاستنباط، أين يتدخل الباحث فيطبق الإجراءات والأساليب اللازمة على الظاهرة أو العينة المتحصل عليها ويحلُّها، " فالاستقراء والاستنباط طريقتان من طرق الوصف في دراسة اللغة، إذ يوصل الباحثُ بحثه باستقراء الأوصاف التي تتَّصف بها هذه الأجناس" (التواتي، 2008. ص: 30) ، ويُعدُّ استقراء المادة اللغوية من مظاهرها ومواطنها الأصلية الفصيحة شرطاً من شروط سيبويه وجميع العلماء المسلمين إلى غاية العصور المتأخرة من تاريخ علوم المسلمين أين قل التحقيق، وفترت العزائم وضعفت الهمم، يقول تمام حسَّان: " أمَّا جمعُ المادة واستقراءها وتقسيمها وتسمية أقسامها ومفهوماتها، ثم وضع القواعد التي تصف جهات الشركة بين المفردات، فقد تمَّ كُله على نحوٍ يثير الإعجاب، وقد بُدِّل فيه من الجهد ما سوف يظل أثره ملحوظاً أبدياً الدهر، رغم هذه الاعتراضات المنهجية" (حسان، 1994. ص: 159).

ويسوق سيبويه أمثلة كثيرة تدلُّ على استقراءه الواسع والدقيق لكلام العرب، يقول سيبويه: " وقال أكثر العرب في وِجْل يوجَلُّ، ووجِل يُوَجَلُّ: مَوْجَلٌّ ومَوْجَلٌّ" (سيبويه، دت، ص: 96) ، وقال: " حدَّثنا يونس أنَّ العرب تُشَدُّ هذا البيت، وهو لعبد بن الطيب:

فما كان قيس هُلُكُهُ هُلُكٌ واحدٍ ولكنّه بنيانٌ قومٌ تَهَدَّمَا
وقال رجل من بَجِيلَةَ أو خثعمٍ:
ذَرِينِي إِنَّ أَمْرَكَ لَن يَطَاعَا وما أَلْفَيْتَنِي حِلْمِي مِضَاعَا

وقال آخر في البديل:

إِنَّ عَلَيَّ اللهُ أَنْ تَبَايَعَا تُؤْخَذُ كَرْهًا أَوْ بَجِيئًا طَائِعَا

فهذا عربيٌّ حسنٌ، والأوّلُ أعرفٌ وأكثرُ " (سيبويه، دت، ص: 156) ، فحُكْمُ سيبويه على نوع معين من الظواهر اللغوية بأنه قول عامة العرب، وتحديدُهُ للأشهر والأوسع استعمالاً، دليل على استقراءه الواسع للغة العربية، وقال سيبويه: وزعموا أن بعض العرب يقول: " شهر ترى، وشهر ترى، وشهر مرعى"، يريد ترى فيه، وقال:

ثلاث كلهن قَتَلْتِ عَمداً فأخزى الله رابعةً تَعُود

فهذا ضعيفٌ، والوجه الأعرف الأكثر النصبُ، وإنما شبهوه بقولهم: الذي رأيتُ فلانٌ" (سيبويه، دت، ص: 86) ، ففي مثل هذه النماذج السماعية التي ساقها سيبويه في كتابه، وفي حديثه عن المطرد وعن الكثير يتجلى تحليله العلمي الوصفي، ويتجلى أسلوب الاستقراء عنده، وفي الدرس العربي عموماً، وما كان سيبويه يُطلق هذه الأحكام لولا أنه اجتهد في تتبع هذه الظاهرة ومعرفة أوجهها، وقد كانت طريقته في الاستقراء قائمة على تحديد الظاهرة اللغوية المراد استقراءها، ثم تحديد البيئات اللغوية الفصيحة الممكن تسجيل الظاهرة فيها، ثم ينطلق في جمعه وتمحيصه للشواهد اللغوية التي تُخدم دراسته، ومن أمثلة استقراءه أيضاً قوله: " هذا البيت تُنشده العرب على أوجه، بعضهم يقول: - وهو قول عمرو بن معد يكرب-:

الحَرْبُ أولُ ما تكونُ فُتِيَّةً تَسْعَى بِبِرْتِهَا لِكَلِّ جَهُولِ

أي الحرب أَوَّلُهَا فُتِيَّةٌ، ولكنه أنثُ الأول، كما تقول: ذهبت بعض أصابعه، وبعضهم يقول: " الحربُ أَوَّلُ ما تكونُ فُتِيَّةً، أي إذا كانت في ذلك الحين، وبعضهم يقول: " الحربُ أَوَّلُ ما تكونُ فُتِيَّةً، كأنه قال: الحربُ أولُ أحوالها إذا كانت فُتِيَّةً" سيبويه، دت، ص: 408)، فهذا المثال صورة لمنهج سيبويه في تتبع كلام العرب، وهو دليل اجتهاده العجيب في استقراء الظواهر اللغوية ولو كلفه ذلك البحث في كلِّ لهجات العرب كلّها، من أجل الوصول إلى الحقيقة العامة ومن ثم إطلاق الحكم المناسب للظاهرة أو العينة اللغوية المدروسة على الرغم من صعوبة ذلك الأمر ومخاطره.

ولكُم تَكَبُّدُ العلماء في طلابهم العلم من الحن والمآسي، وهو جهد قل نظيره في هذا العصر الذي أصبح فيه كثير من الباحثين يدخرون جهودهم أو يَضِنُّون بها عند استقراءهم لموادهم وظواهرهم العلمية، على الرغم ممَّا أتيح لهم من إمكانيات، ثم هم يسارعون في إطلاق أحكامهم غير مستقراء ولا متبنتة.

لقد توصل سيبويه من خلال استقراءه الجاد وحسه البحثي المرهف إلى أن الكلم العربي ينقسم إلى قسمين، قسم معرب والآخر مبني" (سيبويه، دت، ص: 13)، ومن نتائج استقراءه أيضاً إدراكه بأنّه " ليس في الأسماء جزم لتمكنها وللحاق التنوين، فإذا ذهب التنوين لم يجمعوا على الاسم ذهابه وذهاب الحركة" (سيبويه، دت، ص: 14)، فقد أدرك بأن للأفعال الحركات، ولها الجزم أيضاً كالأمير

والمضارع، وأنَّ الأسماء اختصت بالحركات، ومن الاستقراء أيضاً، بل من أفضله على غير يسر فيه استقراء القرآن الكريم وقراءته، لذلك نجد سيبويه كثيراً ما يوظف القرآن الكريم إما مستدلاً به وإما مقتبساً منه وإما معللاً له وموجهاً، وإن في توظيفه للقرآن الكريم والقراءات القرآنية لدليلاً على سعة علمه وشموله، فنجده يستدل بالقرآن الكريم على صحة مذهبه في تعليل الظاهرة النحوية في خلال حديث له عن باب الفعل بعد استثنائه بكلام العرب: ومثل ذلك قوله عز وجل: "يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا"، وقوله عز وجل: "وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (38) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (39)", ومثله: "فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ" (سبويه، دت، ص: 89) .

2.4. الاعتماد على الراوي أو المتكلم الأول (تسجيل اللغة من الناطقين الأصليين بها)

يُعد الناقل الأصلي للغة أهم عنصر استبيان في المنهج الوصفي، ولذلك يحرص علماء اللغة في جمعهم للمادة اللغوية على أخذها من الناطقين الأصليين بها، ومن أهم شروط المنهج الوصفي في علم اللغة الحديث "الاعتماد على المتكلم الأصلي للغة (الراوي)، واتخاذ مساعدا للبحث؛ لأنه خير من يمثل اللغة بصدق، ويُشترط فيه أن يكون أمياً" (باي، 1998. ص: 140).

ويُعد علم الرواية من أهم العلوم التي استأثرت بها المسلمون وتفردوا عن غيرهم من الأمم في نصوصهم وعلومهم الشرعية، وعلم اللغة أحد تلك العلوم المنقولة بالرواية: (بالسند المتصل الصحيح)، وقد اتخذت الرواية شكلين اثنين أحدهما الحفظ والآخر الكتابة، وهي في الوحيين الشريفين - القرآن الكريم والحديث النبوي - أكثر تحرياً ودقة وضبطاً مما سواه من النصوص ومن العلوم أيضاً، ولقد وضع العلماء في كل نوع من العلوم المسندة أو المروية على اختلافها شروطاً محددة، وضوابط جيدة ورصينة، على اختلاف فيما بينهم في درجة التحري وشروط الرواية، فمنها ما يتعلق بالراوي ومنها ما يتعلق بالمروي عنه ومنها أيضاً ما يتعلق بالمروي ذاته.

وقد كانت للرواة المسلمين سجلات وجهود عظيمة في جمعهم وتدوينهم لعلومهم، خلدتها صفحات التاريخ وكتب العلماء، وكانوا "يرحلون إلى الصحراء فيلقون الأعراب ويجمعون عنهم النصوص ويروون عنهم الأحاديث، ثم يعودون إلى البصرة أو إلى غيرها من مراكز الثقافة بجر الحقائب، فيُعلِّمون ذلك للناس أو يبتغون به القرى من ذوي السلطان" (حسان، 1994. ص: 159).

ولأهمية مرويات اللغة وجب على الرواة أخذها من الناطقين الخالص بها؛ لأنهم أوثق وأمن على لغتهم وأعلم بما ممن سواهم، شرط أن يكون الراوي الذي اعتمد في ذلك أمياً؛ لئلا يقع في التكلف والتصنع ويُدخل على اللغة ما ليس منها، واللغات تتفاضل فيما بينها في درجة التنوع والثراء اللغوي، كما أنها نسبية ومتفاوتة بين الأفراد أيضاً، وإن مجال بحث عالم اللغة الوصفي يتمثل حقيقة في حقل اللغات الحية، حيث يمكن تزويد الباحث بأحد أبناء اللغة الذين يتكلمون بها، وهو الذي يعرف فنيا باسم الراوي اللغوي "INFORMANT"، ودرجة الثقافة المطلوبة في الراوي اللغوي أمر نسبي" (باي، 1998. ص: 120).

ولقد كان سبويه شديد التحري، صارماً في اشتراط الفصاحة في الرواة، فكان يرتحل إلى البوادي الفصيحة الواقعة في رقعة الاحتجاج اللغوي، ويأخذ عن العلماء الفصحاء الثقات، كالخليل وأبي عمرو بن العلاء وغيرهما، وكان لا يستجيز لنفسه الرواية عن غير الثقة وهو منهج علماء البصرة كلهم، فنجده ينبه على مرويات غير الثقات ويقلل من شأنها، كقوله: "ومن قال: مررتُ برجلٍ أسدٍ أبوه قال: مررتُ برجلٍ مائةٍ إبله، وزعم يونس أنه لم يسمعه من ثقة ولكنهم يقولون: هو نازٌ حُمْرٌ؛ لأنهم قد بينون الأسماء على المبتدأ ولا يصفون بها؛ فالرفعُ فيه الوجه، والرفع فيه أحسنٌ وإن كنت تريد معنى أنه مبالغٌ في الشدة؛ لأنه ليس بوصف" (سبويه، دت، ص: 29) ،

ومن أمثلة ذلك قوله: "وزعم الخليل رحمه الله أن قولهم: ربحْتُ الدرهم درهمًا، محالٌ، حتى تقول: في الدرهم وللدرهم، وكذلك وجدنا العرب تقول" (سيبويه، دت، ص: 395).

ومن أمثلة اعتماد سيبويه على الفصحاء من الرواة نقله عن أستاذين عظيمين من أساتذته في النحو واللغة، يقول سيبويه: "وقد يقول بعض العرب: ارم في الوقف، واغز، واخش، حدثنا بذلك عيسى بن عمر، ويونس" (سيبويه، دت، ص: 278)، ولَمَّا كان الأعراب وأهل البادية هم أفصحُ الناس في العموم فقد اعتمد سيبويه على مروياتهم كثيرا، وهو ما زاد كتاب سيبويه قوة ورسالة، وفي كثير من الأحيان يُقَرُّ لهم سيبويه بالعلم الغزير باللغة وبالفضل على العربية عندما يستدل لهم، يقول سيبويه: "وأما حيَّه التي للأمر فمن شيتين، يدلُّك على ذلك حي على الصلاة، وزعم أبو الخطاب: أنه سمع من يقول: حيَّ هل الصلاة، والدليل على أنهما جُعلتا اسما واحدا قول الشاعر:

وَهَيَّجَ الحَيِّ مِنْ دَارٍ فَظَلَّ لَهُمْ يَوْمٌ كَثِيرٌ تَنَادِيهِ وَحَيَّهْلُهُ

والمواقي مرفوعة، وأنشدناه هكذا أعرابي من أفصح الناس، وزعم أنه شعر أبيه" (سيبويه، دت، ص: 300)، ففي هذا البيت إقرار واعتراف من سيبويه صريح، بأن هذا الأعرابي الراوي على مستوى عال جدا من الفصاحة، وفيه دليل على شدة حرص سيبويه وتحريه في أخذه عن الرواة.

3.4. الدراسة العلمية والموضوعية للغة:

إذا كانت الموضوعية ميزة جديدة للباحث اللغوي الغربي، فرضها عليه المنهج الوصفي الحديث، فإنها أصل من أصول البحث اللغوي العربي القديم التي أدركها اللغويون المحدثون اليوم ودعوا إلى التزامها، وعدَّها اللغويون العرب أسلوبا علميا شديد الصلة بأخلاق العالم وشمائله؛ فيما أن يلتزمه اللغوي فيعتبر صادقا أميناً ثقة في دراسته، أي موضوعيا ومحايذا، وإما أن يتجاهله ويهمله فيعتبر منحازا، أي انطباعيا وذاتيا.

و" اتخذ سيبويه من الموضوعية أساسا يستند إليه في منهجه الوصفي، على أن يكون بينه وبين الواقع جذور مشتركة" (توزاد، 1996، ص: 74)، لذلك يجب على دارس اللغة أن يجعل من اللغة مادته الأساسية في دراسته إذا كان يروم لها بلوغ العلمية وأن تكون موافقة للمنهج الوصفي، و" لقد ارتبطت الوصفية في تصور اللسانيين العرب بشكل أساس بنزوع البحث اللساني إلى التحلي بالموضوعية "objectivity"، أو ما يشرحونه بالتجرد عن الذاتية تجردا عن كل غرض وهوى وسابق معرفة، والبدء بالملاحظة والمراقبة وتدوين الملاحظات" (بكوش، دت، ص: 86)، فمثل هذه الصفات جدير بأن يجعل من البحث اللغوي عملا علميا رصينا متصفا بالموضوعية؛ لأنها "سمة المنهج الوصفي وهدفها الرئيس" (توزاد، 1996، ص: 26)

كما صرَّح سيبويه في كثير من المواطن باعتماده طرائق العرب ولحونها في كلامها فلا يجيد عنها ولا يبدلها، فكيف إذا تعلق الأمر بالقرآن الكريم، حينها يكون أكثر تورعا ووجلا وتحزرا من أن يتعسف في إطلاق أحكامه، أو إخضاع أي الله عز وجل لقوانينه وقواعده، وذلك نحو قوله: "فأما قوله عز وجل: "إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ"، فإنما هو على قوله: زيدا ضربته، وهو عربي كثير، وقد قرأ بعضهم: "وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ"، "إِلَّا أَنَّ الْقِرَاءَةَ لَا تُخَالَفُ؛ لِأَنَّ الْقِرَاءَةَ السُّنَّةُ"، (سيبويه، دت. ص: 148)، فما أجمل هذا الكلام وما أحسنه، وما زاده جمالا وقوة وجزالة أنه كلام سيد نحة العرب وإقراره، فقد كان وقفا عند كتاب الله مجالاً له في كل حال مبعجا، ملتزما بكيفية

تنزله، غير مخطّئ له ولا مبدّل أو معترّض، كما كان أميناً في نقله عن العرب ملتزماً باستعمالات العرب، وكثيراً ما نلفيه يشير إلى ذلك بعبارات من مثل قوله: " فهذا أقوى من أن أحدث شيئاً لم تكلم به العرب " (سيبويه، دت. ص: 179) ، وقوله: " هذا باب ما يكون مفعلة لازمة لها الهاء والفتحة، وذلك إذا أردت أن تكثير الشيء بالمكان، وذلك قولك: أرضٌ مَسْبِعةٌ، ومَأَسِدةٌ، ومَذَابِةٌ، وليس في كل شيءٍ يقالُ إلاّ أن تقيس شيئاً وتعلم أنّ العرب لم تكلم به " (سيبويه، دت. ص: 94).

وقد ورث سيبويه هذا الحس العلمي الموضوعي وهذا الحياد في طرح القضايا اللغوية عن مشايخه، وقد روى مثل ذلك عن الخليل فقال: " قال الخليل: كلُّ شيء من ذلك عدلته العرب تركته على ما عدلته عليه، وما جاء تاماً لم تحدث العرب فيه شيئاً فهو على القياس، فمن المعدول الذي هو على غير قياس قولهم في هذيل: وفي فقيم كنانة: فقمي، وفي مليح خزاعة: ملحي، وفي ثقيف: ثقفِي، وفي زينة: زبائي، وفي طيء: طائي، وفي العالية: علوي، والبادية بدوي، وفي البصرة: بصري، وفي السهل سهلي، ولما أن فرغ سيبويه من باب الرأى نسب العلم إلى أهله، فقال قوله تنم عن أمانته في النقل، وعن ترفعه عن حظوظ الدنيا أو ادعاء السبق إلى علم النحو، فقال مقوياً رأيه، ومنبها في آخر كلامه: " سمعنا جميع ما ذكرنا لك من الإمالة والنصب في هذه الأبواب من العرب " (سيبويه، دت. ص: 144) ، وذلك في كتابه كثير جداً، فقد كان يكفيه من علمه وكتابه أن يُعلم الناس لغة كتابهم العظيم، فسُرَّ نجاح الأعمال وبقائها الأمانة والصدق والإخلاص.

4.4. الدراسة التزامية والمكانية للغة: (ثنائية دي سوسير)

لقد فرّق علم اللغة الحديث بين نوعين من الدراسة هما الدراسة الزمنية "SYNCHRONIC"، والدراسة التزامية "DIACHRONIC"، فأما الأولى فتعني دراسة اللغة في مسارها التاريخي، من خلال تتبع ظواهرها اللغوية، ورصد التغيرات التي تطرأ عليها خلال حقبة أو حقبة زمنية معينة، وأما الثانية فتعني دراسة الظاهرة اللغوية في فترة زمنية محددة، غير أن الدراسة الوصفية لا تقتصر على الزمن الحاضر فحسب، بل إنها تتعدى ذلك لتدرس الظاهرة اللغوية في أية فترة من فترات تاريخها، بشرط أن تكفي في ذلك بنقطة زمنية محددة فتخصها بالدراسة، فلا بد - حسب ديوسوسير - من التمييز بين مراحل اللغة المختلفة، بأن تُدرس كل مرحلة على حدة، دراسة آنية وصفية، وهو " لا يقصد بالدراسة الوصفية قصرها على الوقت الحالي فحسب، أو دراسة اللغات الحية وحدها، وإنما قصد بها دراسة أية لغة، قديمة أو معاصرة (حية)، من خلال نص مكتوب، أو بوسائل سمعية، في فترة محددة زمنياً" (دراج، 2003. ص: 90).

واعتمد سيبويه نفسه في بحثه اللغوي المنهج التزامي، متمثلاً في دراسة اللغة دراسة وصفية آنية، غير متتبع فيها لتاريخ الظواهر اللغوية، بل لقد حدّد كغيره من علماء العربية للاحتجاج حدوده الزمانية، لكي لا تتفرق به السبل وتتشعب في دراسة لغات العرب كلّها، فإنها أكبر من أن يحيط بها بشر عادي.

ويتجلى ذلك من خلال دراسته لمختلف الظواهر اللغوية في لهجات العرب بحسب ما انتهى إليه وضعها في زمنه، فهو يصف ما هو كائن وملموس، ولأجل أن رقعة الفصاحة بدأت تضيق في بلاد العرب، فقد أولى سيبويه عنصر المكان اهتماماً بالغاً، حيث حدد رقعة الفصاحة اللغوية، فقصر الاحتجاج على ستة قبائل مثل سائر علماء البصرة، ف" الذين عنهم نُقلت اللغة العربية، وبهم افتُدي، وبعثهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم: قيس وقيم وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم أتكل

في الغريب وفي الإعراب والتصريف، ثم هُذِبل وبعض كنانة وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم" (السيوطي، 1998، ص: 84)، ووَضَعَ للفصاحة شروطها الخاصة.

ولما تشدَّد سيبويه في منهجه الوصفي تشدَّدَه العلمي المطلوب، ضاقت عليه مصادر الاحتجاج اللغوي، فاقتضى ذلك الالتزام والتشدَّد في التقعيد والقياس، فأثمَّ بالتعقيد والتشديد والتضييق، ومما يدل على التزامه ثنائية الزمان والمكان، اشتراطه النقل عن بعض الأمكنة دون غيرها، فمما جاء في ذكرها قوله: "قومٌ من قيس وأسدٍ ممن تُرتضى عربيته" (سيبويه، دت. ص: 125)، وقوله: "فأما ما كان آخره راءً فإنَّ أهل الحجاز وبني تميم فيه متفقون" (سيبويه، دت. ص: 278)، وقوله: "وزعم لي بعض العرب أن" يا هذا زيدٌ"، كثير في كلام طيء" (سيبويه، دت. ص: 192)، ومما جاء في ذكر هذيل قوله: "وذلك قولهم: غُرْسَاتٌ وَأَرْضَاتٌ، وَعَيْرٌ وَعَيْرَاتٌ، حَرَكُوا الْيَاءَ وَأَجَمُوا فِيهَا عَلَى لُغَةِ هُذَيْلٍ؛ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: بَيْضَاتٌ وَجَوَزَاتٌ" (سيبويه، دت. ص: 600)، غير أن إكثار سيبويه من الأخذ عن فصحاء العرب لم يمنعه من الاستشهاد بكلام من هم أقل منهم في الفصاحة في بعض المواطن، كلما وجد في كلامهم ما يوافق قانونه النحوي، أو يذكره ليبيِّن ضعفه.

وأما من حيث التزامه بمكون الزمن أحد عنصري ثنائية الزمان والمكان في اللسانيات الحديثة، فقد قصر سيبويه دراسته للغة العربية على وضعها الراهن الذي عاشه، والذي عُدَّ آخر عهود العربية الفصيحة، وعلى صورتها الحية المستعملة، ولم يتناول العربية كلها بالدراسة، حيها وميتها، باقياها وبائدها، وكان كثيرا ما يشير إلى تغير الاستعمال وتبدله عبر الزمن، وإلى التزامه وضع العربية وزمنها الحاضر، وتركه استعمالات الزمن الماضي المهجورة أو الميتة، كقوله: "وهي اللغة العربية القديمة الجيدة، ولكن بني تميم أدغموا" (سيبويه، دت. ص: 473)، وقوله: "وإن لم يُستعمل، كما أنه يقال: يذر ويدع، ولا يستعمل فعل، وهذا النحو كثير" (سيبويه، دت. ص: 399)، ومثل قوله أيضا: "ويختار بنو تميم فيه لغة أهل الحجاز كما اتفقوا في يرى، والحجازية هي اللغة الأولى القدمى" (سيبويه، دت. ص: 278).

5.4. التمييز بين استعمال الجماعة واستعمال الفرد الواحد: أي بين (اللغة والكلام)

لقد فرَّق دي سوسير في دروسه بين ثنائية اللغة والكلام كأساس من أسس الدراسة العلمية للغة، وأسلوب من أساليب المنهج الوصفي للغة، وهو بتفريقه بين اللغة والكلام، يكون قد فرق بين صنفين من المستخدمين للغة، فإذا كانت اللغة تمثُّلاً اجتماعياً، وصورة موحَّدة وثابتة للاستعمال اللغوي العام في مجتمع ما، فإن الكلام أمر نسبي مختلف عن اللغة، وهو ما نجده عند سيبويه في تفريقه بين استعمال الأفراد وبين الاستعمال العام أو الفصيح للغة.

وقد كان المعيار والحكم عنده هو لغة الجماعة اللغوية، متمثلة في اللهجات العربية الفصيحة التي يُتجج بها ويجري عليها القياس، وتُستمد منها النماذج اللغوية الفصيحة والمطرودة، فتلك هي اللغة، ويدلنا على ذلك حديثه عن اللغة الفصيحة المطردة القياسية، وقد استخدم في ذلك عبارات من مثل قوله: "فكل هذا فيه اللغة المطردة" (سيبويه، دت. ص: 346)، وقوله: "يُحمل هذا على الاطراد" (سيبويه، دت. ص: 366)، وقوله: "وهذا ليس بالمطرود كما لا تطرد أشياء كثيرة ذكرناها"، هذا من جهة، ومن جهة أخرى حديثه عن الاستعمالات الفردية المتعددة للكلام، وكذا النماذج الكلامية الممكنة استعمالها، وتلك فطنة منه بوسع اللغة، وهي دليل علم وطول مراس، وأما الكلام عنده فهو ما اختص به فرد من أهل هذه اللغة، وما تفرد به عنهم، وما اختاره من طريقة أو مذهب في

القياس، فإذا وافق فيه كلام العرب فهو اللغة، وإذا خالفه فهو الكلام، والكلام في عرف سيبويه والنحويين عموماً هو ما يعرف بالجملة، فهو بذلك جزء من اللغة، ويدلُّنا على الكلام عنده قوله: "وربما دخلت اللغة في بعض هذا" (سيبويه، دت. ص: 12)، فهو يُعَدُّ العبارة التي عناها بمحدثه مخالفة للغة القياسية، ولا يعتد بها نموذجاً كلامياً جمعياً، ويؤمن بأنه ليس هو كل اللغة، حتى إنه يتساءل عما إذا كانت هذه العبارة أو الاستعمال الذي اختاره المتكلم في كلامه موافقاً للغة.

ونجد أن سيبويه يؤمن بالتعدد اللغوي في العربية كما في غيرها من اللغات، وذلك من خلال إيمانه العميق بتعدد اللهجات في اللغة العربية، ولعل ما زاده تسليماً بذلك أن القرآن الكريم الذي مثل أعلى مستويات الفصاحة نزل بعدد كبير من اللهجات العربية التي تردت كلها إلى لسان جامع لها جميعاً هو اللغة العربية، كما يضع تحديداً وعلامات للغة، ليبين أنها في تطور وتغير من مجتمع إلى آخر، وذلك حين مَيَّرَ بَيْنَ اللغة الأصلية القديمة الفصيحة وبَيْنَ اللغات المستعملة في زمنه، وبَيَّنَّ ما اختل منها وتغير، وما طرأ عليها من اختلافات واختلالات، يقول: "ودعاهم سكون الآخر في المثليين أن بين أهل الحجاز في الجزم فقالوا: اردد، ولا تردد، وهي اللغة العربية القديمة الجيدة، ولكن بني تميم أدغموا ولم يشبهوها برددت، لأنه يدركها التثنية، والنون الخفيفة والثقيلة، والألف واللام وألف الوصل، فتحرك لهن" (سيبويه، دت. ص: 473)، أو حين قال: "والحجازية هي اللغة الأولى القُدمى" (سيبويه، دت. ص: 278)، فإذا كانت لغة الجماعة التي تمثل أعلى مستوى للفصاحة في تبدل مستمر عبر الزمن، فإن استعمالات الأفراد أكثر تبديلاً واختلالاً، فلا يمكن أن تعتبر نموذجاً أعلى للفصاحة.

6.4. الاعتراف باللغة المنطوقة:

إذا كان المنهج التاريخي يؤيِّل أهمية بالغة للغة المكتوبة ولا يعتد باللغة المنطوقة، فإن المنهج الوصفي على العكس من ذلك لا يهتم "إلا باللغة المتكلمة، ويتجنب عادة الاعتماد على المادة المكتوبة أو على القواعد النحوية القديمة؛ لأنها أُسِّست على معايير يرفضها هذا المنهج مثل التعليل والافتراض والتأويل" (حسنين، 1984. ص: 99)، فإن هذه الأسس من أولويات المنهج التاريخي و"لقد تطور علم اللغة الوصفي على وجه الأخص نتيجة ارتباطه بدراسة ما يسمى بلغات الشعوب المتخلفة التي لم تعرف الكتابة بعد، حيث لا توجد أي صيغة مكتوبة للغة، وليس هناك محاولات مسبقة لوصف نحوي، ولا وسيلة للحصول على اللغة في أي صورة أخرى غير صورتها المنطوقة" (باي، 1998. ص: 149).

وتكمن أهمية اللغة المنطوقة في كونها نموذجاً لغوياً حقيقياً وصورة فعلية لسلوك الأفراد اللغوي، في حين أن اللغة المكتوبة قد لا تؤدي ذلك بصورة جيدة، وقد لا تكون تمثيلاً فعلياً للغة المنطوقة لدى الأفراد، فقد تحيد عنها فلا تنقل معانيهم وأفكارهم والانطباع الحقيقي لديهم، ولقد أدرك سيبويه أهمية اللغة المنطوقة فأولاهها اهتماماً بالغاً، فجعل منها مادة أساسية لدراسته للغة، فكان عامة ما أودعه في مصنّفه من النقل السماعي العلمي والمشاهدة بأذن منصّته ونظر ثاقب وتذوق لغوي رفيع.

ففي الأصوات - مثلاً - يتجلى المنهج الوصفي عند سيبويه بصورة واضحة جداً كما لو أن عالم أصوات محدث يستخدم تقنيات علم الأصوات وإجراءاته العلمية لدراسة الظواهر النطقية، وذلك جلي في حديثه عن مخارج الحروف وصفاتها، إنه يتناولها بأسلوب علمي تجريبي رائع، وقد أكد على أهمية بعض الظواهر الصوتية كالنبر والتنغيم في تأدية المعنى المراد، فطريقة نطق الأحرف والكلمات هي التي تتحكم في المعاني، فكلما تغير النبر والتنغيم تغيرت معه المعاني فهي كثيرة بين استفهام وتعجب وأمر ونهي ونفي وتأكيدها وغيرها،

والمتكلم قد يستعمل تركيباً واحداً يمتثل لمجموعة من المعاني، ويميز بينها بالصوت والأداء، وقد تناول سيبويه أسلوب التعجب وبين أن هذا المعنى ضمنى في الكلام وأن المتكلم هو الذي يكشف عنه إذا احتاجه من خلال استخدامه، فقال: "وقد تقول: تالله! وفيها معنى التعجب، وبعض العرب يقول في هذا المعنى: لله، فيجيء باللام، ولا تجيء إلا أن يكون فيها، معنى التعجب" سيبويه، دت. ص: 497).

وقسم سيبويه الحروف إلى قسمين، أحدهما أصلي والثاني فرعي، ووافق في ذلك علم الأصوات الحديث، ومن أمثلة اهتمامه باللغة المنطوقة، حديثه المفصل والمستفيض عن الإدغام، والروم، والإشمام، والاختلاس، وغير ذلك من الظواهر الصوتية التي عَجَّ بها كتابه وحفل، يقول سيبويه بعد حديث عن الإدغام: "وهذه الحروف التي تمتها اثنين وأربعين جيدها ودرئها أصلها التسعة والعشرون، لا تتبين إلا بالمشافهة" سيبويه، دت. ص: 432)، ثم يضيف سيبويه مبينا رأيه في عدد مخارج الحروف العربية قائلا: "والحروف العربية ستة عشر مُحْرَجًا" سيبويه، دت. ص: 433)، وإن كان قد خالفه في هذا الرأي بعض من علماء الأصوات المحدثين وبعض من أئمة القراءات القرآنية كابن الجزري إذ يقول:

مُخَارِجُ الْحُرُوفِ سَبْعَةٌ عَشْرٌ عَلَى الَّذِي يَخْتَارُهُ مَنْ اخْتَبَرَ (الجزري، 2001، ص1).

ويظهر منهج الوصف جليا في حديث سيبويه عن صفات الحروف ومخارجها، وأسلوبه في ذلك أسلوب علمي لا يفتقر ولا يختلف عما هو عليه في العصر الحديث عصر التقنيات المتطورة، فمن ذلك وصفه لأحرف الإطباق الأربعة، وهي قسم من أحرف الاستعلاء السبعة، وهي أقوى الحروف العربية، ثم هي فيما بينها درجات من حيث صولة الحرف وقوته وامتلاء الفم به، والسبب الناتج عن النطق بكل حرف منها، يقول سيبويه في بيان بعض من ذلك، وقد توسع في وصفها وتفسيرها في مواطن وأبواب أخرى من كتابه فقال: "هذه الأربعة لها موضعان من اللسان، وقد بين ذلك بحصر الصوت، ولولا الإطباق لصارت الطاء دالا، والصاد سينا، والطاء ذالا، ولخرجت الضاد من الكلام؛ لأنه ليس شيء من موضعها غيرها" (سيبويه، دت. ص: 436).

7.4. اعتماد السماع العلمي في جمع اللغة والوقوف على العادات النطقية للمتكلمين:

يُعَدُّ السماع بالفعل أب الملكات كلها كما قيل، وهو في علم اللغة الوصفي نموذج الملاحظة الأهم، فلا تقل أهمية في اللغة كأسلوب في كشف ظواهر اللغة وتحليلها، عن أهمية الملاحظة في العلوم الأخرى كأسلوب في كشف الظواهر الكونية واختبارها، ومعنى السماع اللغوي: "الأخذ المباشر للمادة اللغوية عن الناطقين بها" (أبو المكارم، 2006، ص: 33).

واعتمد سيبويه في كتابه على المشافهة والسماع وقدمهما على الكتابة والقراءة" فلم يأت في هذا الكتاب ولا مرة واحدة كلمة قرأت في "أ" أو أخبرني فلان في كتابه"، وغير ذلك، بل يلجأ سيبويه من أول كتابه إلى آخر سطره إلى عبارة سمعت وحدثني، مما يدل على أن مصادره هي كلها شفاهية (الحاج صالح، 2007، ص254)، واشترط سيبويه في نقله شرتين أساسيين هما الثقة، والفصاحة، وأخبر عن ذلك بعبارات من مثل: "وحدثنا من لا نتهم، أنه سمع من العرب" (سيبويه، دت. ص: 245)، وسمعنا فصحاء العرب يقولون " (سيبويه، دت. ص: 503)، وقوله: "سمعنا فصحاء العرب أنشدوا هذا البيت" سيبويه، دت. ص: 505)، وقوله: "فهذا يجري مجرى هذا، إلا أنهم قد قالوا: ما سمعت على هذا المعنى" سيبويه، دت. ص: 649)، وذلك مما يُضفي على عمل سيبويه صفة الوصفية؛ لأنه يعكس درجة التحري الكبير الذي امتاز به في كتابه.

ولا شك أن سيبويه كان يدرك جيدا أهمية الواقع الاجتماعي، وأن للغة حقيقة اجتماعية لا ينبغي إغفالها، وعلم اللغة الحديث يُصدّق ما ذهب إليه سيبويه وما فطن إليه من أساليب علمية جيدة في دراسة اللغة، ويُلمح على ضرورة العناية والاهتمام بالسماع العلمي الدقيق والهادف للناطق، من خلال حسن الإصغاء للرواة أو الناطقين الفصحاء، ومن خلال ملاحظة كيفية الأداء والملاحم والتعابير. وقد حرص العلماء والناقلون للغة على أن تكون الفصاحة تعابير عفوية غير متكلّفة لكي تعطي الصورة الحقيقية للغة المستخدمة في ذلك المجتمع، وتلك هي غاية السماع العلمي وثمرته، ولأهمية السماع فقد جعله أهل القراءة والتجويد شرطا أساسيا في قراءة وإقراء القرآن الكريم والإجازة فيه، فهو صورة من صور الهيئة المشروطة لدى أئمة التجويد وعلمائه، فلا غنى عنه فيها، ومن أمثلة السماع في كتاب سيبويه قوله: "وسمعنا من العرب من يقول: وَقَدَتِ النَّارُ وَقودا عالياً، وَقَبْلَهُ قَبُولاً، وَالْوُقُودُ أَكْثَرُ، وَالْوُقُودُ الْحَطْبُ" (سيبويه، دت. ص: 42)، وقوله: "ومثل ذلك في الإضمار قولُ بعض الشعراء، العَجِيرُ، سمعناه مِّن يوثقُ بعريته:

إِذَا مِتُّ كَانَ النَّاسُ صِنْفَانِ: شَامِتٌ وَأَخْرُ مَثْنٍ بِالَّذِي كُنْتُ أَصْنَعُ

أَضْمَرَ: "فيها"، (سيبويه، دت. ص: 71)، والقرآن الكريم يمثل النموذج الأعلى للسماع الصحيح الفصيح، وهو أساس التقييد الجيد للغة، ولقد استدلل به سيبويه واستشهد في كتابه كلما دعت به إلى ذلك الضرورة، قال سيبويه: "وَبَلَّغْنَا أَنَّ بَعْضَهُمْ قَرَأَ: "يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَعْفُرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"، وتقول: إن تأتني فهو خيرٌ لك وأكرمك، وإن تأتني فأنا لأنيك وأحسنُ إليك، وقال عز وجل: "وَأَنْ تُخْفَوَهَا وَتُؤْتُوها الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ" س البقرة 271، والرفع ههنا وجه الكلام، وهو الجيد؛ لأنَّ الكلام الذي بعد الفاء جرى مجراه في غير الجزء، فجرى الفعل هنا كما كان يجري في غير الجزء" (سيبويه، دت. ص: 90)، ومن سماعه قوله: "وسألْتُ الخليلَ عن البياء لم لم تُنصب في موضع النصب إذا كان الأول مضافاً، وذلك قولك: رأيتُ معد يركب، واحتملوا أيادي سبأ؟ فقال: شَبَّهوا هذه البياءات بألف مثنى، حيث عَرَّوها من الرفع والجر، فكما عَرَّوا الألف منهما عَرَّوها من النصب أيضاً" (سيبويه، دت. ص: 306).

8.4. اعتماد القياس الطبيعي المعبر عن منطق اللغة:

إن من أهم أسس المنهج الوصفي اعتماده على القياس الطبيعي المعبر عن منطق اللغة، ورفضه القياس العقلي القائم على الفلسفة؛ لأنه سمة من سمات المنهج المعياري الذي يعد نحوه نحواً تعليمياً يُحتاج فيه إلى المثال والقاعدة، بخلاف المنهج الوصفي الذي لا يُحتاج فيه صاحبه إلى غير الوصف، واستبعادُ القياس المنطقي في البحث الوصفي لا يعني الاستغناء عن القياس في اللغة؛ لأنه عامل مهم من عوامل نموها وتطورها، فالقياس الذي يستعين به المنهج الوصفي قياس طبيعي ينسجم مع روح اللغة، وينأى عن الأحكام الفرضية، بخلاف القياس الأرسطي الذي غرضه تحقيق مقولات رياضية (نوزاد، 1996. ص: 26).

وانطلق سيبويه في دراسته من المجتمع، متمثلاً في لهجات العرب الواسعة، فالقياس عنده على ما وافق لهجات العرب الفصيحة المطردة، وما خالفه فإنه لا يقاس عليه، وإن حاد الدارس عن ذلك على حد سيبويه، أصبح عمله بعيداً عن الصواب، مجانباً للحقيقة، فمن اللغة المدروسة تُستمد الأقيسة وعليها تُطبَّق، وقد ألح سيبويه على ذلك كثيراً.

فالفصاحة والاطِّراد والصواب اللغوي، وموافقة اللغة العربية وكثرة الاستعمال هي شروط القياس عنده، ومن قياس سيبويه جرُّه خبر المبتدأ، قياساً على جرِّ المضاف إليه الواقع بين المبتدأ والخبر؛ أي بسبب التجاور، فقال: "وقد حَمَلَهُمْ قُرْبُ الجِوَارِ على أَنْ جَرُّوا: هذا

جُحِرُ ضِبِّ خَرِبٍ، ونحوه، فكيف ما يصحُّ معناه" (نوزاد، 1996. ص: 26) ، وقال: "مما جرى نعتنا على غير وجه الكلام: هذا جُحِرُ ضِبِّ خَرِبٍ، فالوجه الرفع، وهو كلام أكثر العرب وأفصحهم، وهو القياس؛ لأنَّ الحَرِبَ نعتُ الجُحِرِ، والجُحِرُ رفعٌ، ولكنَّ بعض العرب يُجْرُهُ، وليس بنعتٍ للضِبِّ، ولكنه نعتٌ للذي أُضيفَ إلى الضِبِّ، فجَرَّوه لأنه نكرةٌ كالضِبِّ؛ ولأنَّه في موضعٍ يقع فيه نعتُ الضِبِّ؛ ولأنه صار هو والضِبُّ بمنزلة اسمٍ واحدٍ" (نوزاد، 1996. ص: 436).

يعتمد سيبويه القياس في تعليل الصواب من الأحكام والمسائل اللغوية لِيُتيح للناس استخدام تلك المقيسات الجديدة حملا على أصولها، فإنه إلى جانب ذلك يعتمد القياس في تعليل الخطأ لِيُجنب الناس الوقوع فيه، وهذا من واسع اهتمامه بالوصف في اللغة، وذلك في نحو قوله: "واعلم أنه لا يقال: قائما فيها رجلٌ، فإن قال قائل: أجعله بمنزلة راكبا مرَّ زيدٌ، وراكبا مرَّ الرجلُ، قيل له: فإنه مثله في القياس، لأن فيها بمنزلة مرَّ، ولكنهم كرهوا ذلك فيما لم يكن من الفعل؛ لأن فيها وأخواتها لا يتصرفن تصرف الفعل، وليس بفعل، ولكنهن أنزلن منزلة ما يستغنى به الاسم من الفعل، فأجره كما أجرته العرب واستحسنن" (نوزاد، 1996. ص: 124)، ومن قياسه أيضا قوله: "وكذلك لو أضفت إلى المساجد قلت: مسجديّ، ولو أضفت إلى الجمع قلت: جمعيّ كما تقول: ربيّ، وإن أضفت إلى عرفاء قلت: عريفيّ، فكذلك ذا وأشباهه، وهذا قول الخليل، وهو القياس على كلام العرب" (نوزاد، 1996. ص: 378) ، ومن قياسه أيضا قوله: "ألا ترى أنّهم يقولون: هل زيدٌ منطلقٌ، وهل زيدٌ في الدار، وكيف زيدٌ آخذٌ، فإن قلت: هل زيداً رأيتَ وهل زيدٌ ذهبَ قَبَّحَ ولم يُجْزُ إلا في الشعر؛ لأنه لما اجتمع الاسمُ والفعلُ حملوه على الأصل فإن اضطرَّ شاعرٌ فقدَّم الاسمَ نصباً كما كنتَ فاعلاً ذلك بقَدِّ ونحوها، وهو في هذه أحسنُّ؛ لأنه يبتدأ بعدها الأسماءُ" (نوزاد، 1996. ص: 99)

9.4. اعتماد التمثيل لإفهام القارئ وبيان مقاصد الكلام:

يعد التمثيل من أهم أسس المنهج الوصفي التي وظفها سيبويه في كتابه مستمداً ذلك من نهج القدامى في مختلف العلوم كالعلوم الشرعية، فكتاب سيبويه هو باكورة العمل اللغوي العربي، لكن ذلك الجيل من العلماء كانوا منفتحين على سائر العلوم، وقد غلب التمثيل على كتابه بما في ذلك حتى شمل عناوين الكتب والأبواب على قصرها عند المُحدِّثين، فمن ذلك أنه اعتمد في اسمه لباب نحوي في الكتاب طول تعليل وتمثيل فقال: "هذا باب من الفعل يُبدل فيه الآخر من الأول، ويُجرى على الاسم كما يُجرى أجمعون على الاسم، ويُنصبُ بالفعل؛ لأنه مفعول" (نوزاد، 1996. ص: 158).

ولمَّا كان التمثيل نوعاً من الشرح والتفسير، فإنَّ من العادة أن يكون ذلك في نصوص الأبواب، لا في الأبواب بحدِّ ذاتها، لكن ذلك راجع إلى حرص سيبويه على الإفهام، وإلى عنايته بالمنهج الوصفي، ومن نماذج التمثيل أيضا قوله: "هذا باب ما ينتصب من الأسماء التي ليست بصفة ولا مصدر؛ لأنها حالٌ يقع فيه الأمرُ فينتصبُ؛ لأنه مفعولٌ به" (نوزاد، 1996. ص: 391) ، فقوله: "لأنها حالٌ يقع فيه الأمرُ فينتصبُ؛ لأنه مفعولٌ به"، هو شرح وبيان فصله سيبويه في عرضه لهذا الباب، لا يفسد المعنى بالاستغناء عنه، بل وجب ذلك في الدراسات الحديثة، لكن ذلك أمر محمود من سيبويه، فهو أسلوب عصره ومنهجه، ولكل عصر أساليبه ومناهجه الخاصة، ثم إنَّ ذلك مما زاد الكتاب تفرداً وتميزاً وعلمية، ومثله أيضا قوله: "هذا باب من الاستفهام يكونُ الاسمُ فيه رُفَعًا؛ لأنَّك تبتدئه لتُنَبِّهَ المخاطَبَ، ثم تَسْتَفْهَمُ بعد ذلك" (نوزاد، 1996. ص: 127).

ومن التمثيل عند سيويه قوله: " فكأنه إذا قال الرجل للرجل: يا فلان، فقال: لبيك وسعديك، فقد قال له: قُرْباً منك ومتابعة لك، فهذا تمثيل وإن كان لا يُستعمل في الكلام، كما كان براءة الله، تمثيلاً لسبحان الله، ولم يُستعمل" (نوزاد، 1996. ص: 353) ، فجُمِل: " قُرْباً منك ومتابعة لك" ، و" لبيك وسعديك" ، و" سبحان الله" ، هي جمل تمثيلية تفسيرية، يُؤتى بها للبيان والإفهام، وما يُؤخذ من هذه النماذج هو فطنة سيويه إلى هذا الأسلوب أو الأساس في الوصف، وهو مما يريد دراسته رصانة و علمية، ويدلنا على علم سيويه بأسلوب التمثيل واستخدامه له عبارته في بعض اختياراته، نحو: " فهذا تمثيل، ولكنه لم يُستعمل في الكلام" (نوزاد، 1996. ص: 374) ، ونحو " كأنك قلت في التمثيل" (نوزاد، 1996. ص: 28) ، و" لا يُستعمل في الكلام رجعَ عَوْداً على بدءٍ، ولكنه مُثَل به" (نوزاد، 1996. ص: 392) ، وكذا " فهذا يوضح لك وإن كان لا يتكلّم به" (نوزاد، 1996. ص: 563)

5. الخاتمة:

لقد توصلنا في بحثنا هذا إلى نتيجة مفادها أن المنهج الوصفي في كتاب سيويه هو المنهج الأكثر استخداماً والأوسع عناية، فقد وظفه سيويه في كتابه توظيفاً بارعاً جعل من كتابه أفضل مصنّف لغوي في العربية، وضاهى كل الكتب في زمنه ومن بعده، وبقي إلى اليوم صامداً على الرغم من التطوير والتحديث الواسع في حقل اللسانيات، فلا تكادُ اللسانيات الغربية الحديثة تُضيف إلى تفكير سيويه اللسانيّ مهماتٍ أو قضايا أساسيةً في علم اللغة، ثم إنها لم تقف على مناحي ضعف أو خطأ في لسانياته.

ولم ينطلق سيويه في بحثه اللغوي في كتابه على أساس من تتبع لظواهر اللغة، بل إنه اكتفى فيه بالبحث في وضع اللغة العربية الراهن، ولقد انطلق من إيمان عميق بأن العربية الفصحى في ذلك الزمن في وضع ممتاز، يُحَوّل لها أن تُدرس الدراسة العلمية الجادة من خلال وصف ما أمكن جمعه في أزمنة الاستقرار والاحتجاج اللغوي، وذلك لا يتحقق إلا بدراستها وفقاً للمنهج الوصفي، وذلك هو شأن غالب الدراسات اللغوية العربية التراثية، وهو ما يمكن لأي باحث أن يقف عليه في دراسته لمؤلفات الأولين من أهل هذه اللغة السماوية العظيمة.

ومن خلال ما تقدم يتجلى سبق سيويه وعلماء العربية إلى الدراسات العلمية للغة، ويتضح أن مناهجهم وطرقهم في الدراسة قد وُلدت مع بحوثهم اللغوية ونبعت من صميمها، وأنّ المنهج الوصفي الذي نادى به اللسانيات الحديثة ما هو إلا غيض من فيوض العرب العلمية، بيد أن العرب لم يصلحوا عليه وعلى أدواته وأسس هذه الاصطلاحات الحاضرة، وأنّ الغرب اختاروا أن يجيدوا عن اصطلاحات العرب التراثية ويخالفوها، وأنّ مثل هذه الأدلة على سبق سيويه وعلمية درسه اللغوي، جواب وحل لإشكالية أو ادعاء عدم جدوى إسقاط المناهج الغربية على التراث اللغوي العربي.

فسيويه أول من ترك لنا منهجاً وصفيًا مفصلاً لأصوات العربية من حيث عددها وترتيبها بحسب مخارجها وصفاتها، وما تتعرض له في سياقها مستعملاً تقنيات عالية في ذلك الزمن: السماع المرهف، النظر الثاقب، والتذوق اللغوي الرفيع. ولا يفوتنا أن نقرأ ما ورد في التنزيل الحكيم: "وَأَتْلُوا اللَّهَ وُيَعْلَمُكُمُ اللَّهُ" البقرة 282.

قائمة المصادر والمراجع

* القرآن الكريم

1- الرازي، أحمد. (1979)، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، بيروت: دار الفكر.

- 2- حافظ نجم، أحمد وآخرون. (1988)، دليل الباحث، السعودية: مكتبة الإسكندرية.
- 3- دراج، أحمد عبد العزيز. (2003)، الاتجاهات المعاصرة في تطور دراسة العلوم اللغوية، السعودية: مكتبة الرشد.
- 4- الجوهري، إسماعيل بن حماد. (1987)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور عطار، بيروت: دار العلم للملايين.
- 5- الكفوي، أيوب. (1998)، الكليات، تح: عدنان درويش، ومحمد المصري، بيروت: مؤسسة الرسالة.
- 6- البدرابي، زهران. (2008)، محاضرات في علم اللغة العام، القاهرة: دار العالم العربي..
- 7- حسان، تمام. (1994)، اللغة العربية معناها ومبناها، المغرب: دار الثقافة.
- 8- بن التواتي، التواتي. (2008)، مفاهيم في علم اللسان، الجزائر: دار الوعي.
- 9- السيوطي، جلال الدين. (1998)، المزهرة في علوم اللغة وأنواعها، تح: فؤاد علي منصور، بيروت: دار الكتب العلمية.
- 10- سيبويه. (1998)، الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، ط3، القاهرة: مكتبة الخانجي.
- 11- بن الجزري، شمس الدين محمد. (2001)، منظومة المقدمة فيما يجب على القارئ أن يعلمه (الجزرية)، دب: دار المغني للنشر والتوزيع.
- 12- حسنين، صلاح الدين صالح. (1984)، دراسات في علم اللغة الوصفي والتاريخي والمقارن، ط1، الرياض: دار العلوم.
- 13- الحاج صالح، عبد الرحمان. (2007)، السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، الجزائر: موفم للنشر.
- 14- بدوي، عبد الرحمن. (1977)، مناهج البحث العلمي، ط3، الكويت: وكالة المطبوعات.
- 15- المسدي، عبد السلام. (1986)، اللسانيات وأسسها المعرفية، تونس: الدار التونسية للنشر.
- 16- أبو المكارم، علي. (2006)، أصول التفكير النحوي، ط1، مصر: دار غريب.
- 17- زوين، علي. (1986)، منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، ط1، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة.
- 18- بكوش، فاطمة الهاشمي. (2004)، نشأة الدرس اللساني العربي الحديث - دراسة في النشاط اللساني العربي-، ط1، القاهرة: إيتراك للنشر.
- 19- باي، ماريو. (1998)، أسس علم اللغة العام، تر: أحمد مختار عمر، ط8، القاهرة: عالم الكتب.
- 20- مجمع اللغة العربية. (2004)، المعجم الوسيط، ط4، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية.
- 21- عبيدات، محمد. أبو نصار، محمد. (1999)، عقلة مبيضين، منهجية البحث العلمي - القواعد والمراحل والتطبيقات، ط2، عمان: دار وائل للنشر.
- 22- الرديني، محمد علي عبد الكريم. (2009)، فصول في علم اللغة العام، الجزائر: دار الهدى.
- نوزاد، حسن أحمد. (1996)، المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، بنغازي: منشورات جامعة قان يونس، بنغازي.